تشييد بغداد

وأثره في فن العمارة والعمران العربي والعالمي

الدكتور سليم عادل عبد الحق
المدير العام للآثار والمتاحف

قال الجاحظ : « رأيت المدن العظام والمذكورة بالاتقان والامكان ، بالشامات وبلاد الروم ، وفي غيرهما من البلدان ، فلم أرَ مدينة قط أرفع سِمكا ، ولا أجود استدارة ، ولا أنبل نَبَلا ، ولا أوسع أبوابا ، ولا أجود فصيلاً من الزوراء ، وهي مدينة أبي جعفر المنصور[1] » .

وقد صدق الكاتب العربي الكبير في هذا الحكم صدقه في معظم ما صدر عنه من أحكام . ولم يكن مستغرباً من رجل دقيق الملاحظة ، صادق التجربة ، مرهف الحس كأبي عثمان الجاحظ أن يتعرف على التقدم المدهش الذي حققته بغداد على المدن العربية والرومية المعاصرة ، والذي جعل غيره يقول في بغداد : « انها الحاضرة والأرض كلها بادية لها »[2] .

ولا أود أن أمضي مستشهداً بأقوال المؤرخين والأدباء عن مزايا بغداد ، والكلام في ذلك وفير جداً ، وقد سبقني اليه عشرات المؤرخين وعلماء الآثار ، كما لا أود أن أخوض في بحث تاريخي وأثري وفني شامل ، عن ولادة هذه المدينة العجيبة ، وعن حوادث نموها والظروف التي أحاطت بتطورها في مختلف العصور ، مما يقتضي انصراف عمر مديد . وقصدي الآن فقط

(١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، طبع القاهرة ٩٣١ الجزء الأول ، الصفحة (٧٧) .

(٢) الخطيب البغدادي ، المصدر المذكور ، الصفحة (٤٥) .

الاشارة باقتضاب الى صفات مدينة المنصور وإلى بعض الملابسات التي هيأت لها مكانة استثنائية في تاريخ العصر الوسيط ، وايضاح الأثر الذي تركه تشييدها في فن العمارة والعمران العربي والعالمي .

ومن المعلوم أن التاريخ نقل الينا أخبار تشييد بعض المدن العظيمة التي كان لها شأن كبير في العصور القديمة والعصور المتوسطة ، كمدن قرطاجة ، وروما ، والاسكندرية ، والقسطنطينية والقاهرة ، وغيرها ، على أيدي رجال ميتولوجيين أو حقيقيين تمتعوا بشهرة واسعة شأن أبي جعفر المنصور باني بغداد . ولا يخفى أيضاً أن كل مدينة من هذه المدن لعبت دوراً كبيراً جداً في حياة المنطقة التي نشأت فيها ، وفي حياة العالم ، وأن الدور المذكور لم يكن أقل شأناً من الدور الذي كان لبغداد في تاريخ العرب والتاريخ العام . الا أن إنشاء أية مدينة منها لم تُتَح له كما كان الأمر بالنسبة إلى بغداد ، أسباب الاستفادة من جميع تجارب الماضي المعمارية والعمرانية في منطقة تعاقبت عليها أروع المدنيات كمنطقة الشرق العربي ، وفي تجميع أهم العناصر الايجابية من تلك التجارب الإنسانية ، وجعلها تتوافق وتنسجم مع بعضها انسجاماً تاماً ، وتتمشى على أصول منطقية في التخطيط والتنفيذ بما يتفق مع مقتضيات الموقع وحاجات السكان ومتطلبات حياتهم ، واتجاهات التطور التاريخي .

وأولى صفات العمل الكبير الذي حققه المنصور ، هي الإرادة الواعية والمدركة لأهمية الواجب الملح في ايجاد مدينة كبرى تتجلى فيها عظمة الدولة العربية . وفي الواقع بعد ان تخلت هذه الدولة العربية التي آلت مصائرها الى المنصور ، عن عاصمتها دمشق المنحازة إلى الأمويين ، توجب تحريك مقر الحكم العربي ، ونقله إلى الشرق ، الى العراق سرة الدنيا والاقليم الرابع الذي هو الإقليم المتوسط بين أقاليم العالم السبعة كما يقول ذلك معظم المؤرخين والجغرافيين العرب (١) ولم يختر المنصور الكوفة ، وتحول عن مدينة الهاشمية ، ووصل الى جَرجريا وقطع المسافة الى الموصل ، ثم عاد أدراجه الى موقع بغداد وتفحص الأرض تفحص الخبير العارف بزاياها الطبيعية والطوبوغرافية وبشرائطها الاقليمية والصحية . فلم يجذب إلا إلى المنطقة التي جُذب اليها من قبله الآشوريون والبابليون والاسكندر والبارثيون والأكاسرة . ومال إلى الموقع

(١) انظر : Georges Salmon, L'Introduction Topographique a l'histoire de Bagdadh, Paris 1904, P 22

الذي تحميه الأنهار ويتعذر غزوه إذا خُرِّبت القناطر وقطعت الجسور ، وتنتهي اليه طرق القوافل من كل الاتجاهات ، ويتصل عن طريق دجلة بالبحر وما حوله وما وراءه من بلاد كعُمان والبحرين وفارس والهند والصين ، وتأتيه الميرة من الجزيرة وأذربيجان وأرمينيا ، وتصله حاصلات ديار مضر والرقة والشام ، ومصر والمغرب مارة بالثغور والفرات (١) .

ويلقي هذا الاختيار نوراً ساطعاً على رغبة المنصور في تجهيز الدولة العربية التي تمتد حدودها بين الصين وبين جبال البيرنة بعاصمة دائمية تكون متوسطة بين ولاياتها الشاسعة ومسرحاً لنشاطها العالمي في مختلف الميادين ، وداراً للسلام الذي تنشده على المستويين الداخلي والخارجي . وكان لا بد أن تكون المدينة الملكية الجديدة حصينة جداً حتى لا يمتد اليها التخريب الذي امتد الى المدن السومرية والأكدية والآمورية والآشورية والبابلية والأخمينية والساسانية التي نشأت في العراق قبلها . كما كان لا بد أن تُذكِّر هذه المدينة بالمدن العربية في الشبه الجزيرة كمكة التي تتوسطها الكعبة ، والمدينة المنورة التي تضم مسجد رسول الله ، والطائف المدينة العربية الوحيدة التي كان لها سور في فجر الإسلام ، وأن تنسي الناس جمال المدن الشامية المنسقة كدمشق وحمص وبصرى وتدمر . وكان على مدينة المنصور أن تَبُذّ خاصة ما بناه الأمويون في بادية الشام من مدن صغيرة متألفة من قصور شامخة ضخمة مبنية بالحجر المنحوت ومرفوعة أروقتها على عمد ومزين داخلها بألواح الفسيفساء الزجاجية الجميلة والزخارف الجصية الرائعة ، ومن ملحقات لهذه القصور كالحمامات والخانات وبيوت المزارعين والبساتين التي تساق اليها أقنية المياه من مناطق السدود . ومن المعلوم أن الباحثين في عصرنا عثروا على أطلال ثلاثين من هذه القصور ودرسوا ما كان لها من دور هام في أعمار الصحراء (٢) .

(١) الطبري ، تاريخ البلدان ، الجزء التاسع ، الصفحة ٢٣٨ .

(٢) انظر الأبحاث :

— H. Stern, Notes sur l'Architecture des châteaux des Omeyyades, Ars Islamica T. III
— K. A. C. Creswell, Architecture Musulmane Primitive, Encyclopédie de l'Islame, Architecture, T. I, Nouvelle Edition
— Id. Early Muslim Architecture, T. I et II.

ولا بد من التذكير ان الوليد بن عبد الملك شيد قصر المُنيا قرب طبريا ، وقصر جبل سيس على بعد نحو مائة كيلو متر شرقي دمشق ، وأن الخليفة هشام بن عبد الملك بنى قصر الحير شرقي تدمر ، وقصر الحير غربي هذه المدينة ، وقصر المفجر شمالي أريحا ، وان الوليد الثاني رفع قصر المُشَتى ثم قصر التوبى .

وكان على المنصور أيضاً أن يتفحص التجارب المعمارية والعمرانية العربية الأولى في أرض العراق . فقد نشأت البصرة باكورة مدن العرب الجديدة منذ السنة (١٤ هـ = ٦٣٥ م) بصورة عفوية ، وبلا تخطيط ودون أمر الخليفة ، وذلك بأن استبدل العرب خيامهم التي ضربوها في موقعها أثناء الفتح بمنازل من اللبن والطين [١] . وقد بني على هذا الشكل مسجدها الذي شيدت جنوبيه دار امارتها . وبعد ثلاث سنوات من نشوء البصرة أي في السنة (١٧ هـ = ٦٣٨ م) أمر الخليفة عمر بن الخطاب ، إثر معركة القادسية أن ينتقل سعد بن أبي وقاص من المدائن ، وأن ينزل في الكوفة . ويذكر البلاذري [٢] ان سعداً لما بلغ موقعها أمر رجلاً فعلا بأربعة أسهم في مهب القبلة ومهب الشمال ، ومهب الجنوب ومهب الصَّبا ، وأُعلم على مواقع هذه الاسهم ، ثم بني المسجد ودار الامارة في وسط المدينة ، التي عينت حدودها ، ووزعت أراضيها بين القبائل . وكان شكلها كما يبدو من حديث البلاذري ومما قاله ياقوت عنها مستديراً [٣] وكانت طرقها منظمة حول مسجدها وقد جعلت الرئيسية منها بعرض (٤٠ ذراعاً) والفرعية بعرض (٢٠ ذراعا) .

وهكذا فان قيام المسجد ودار الامارة في وسط المدينة العربية كما رأينا في البصرة والكوفة وكما كان ذلك في دمشق بالنسبة للمسجد الأموي وقصر الخضراء ، وفي الفسطاط بمصر بالنسبة الى جامع عمرو بن العاص ودار امارته ، أصبح القاعدة الأولى في بناء كل مدينة عربية . ثم ان اقطاع أراضي المدينة الجديدة للقبائل العربية التي تنزل فيها ، وتخصيص أحيائها لطبقات معينة من الوافدين عليها صارا القاعدة الثانية في كل عملية تخطيط .

(١) كريزويل ، المصدر السابق ، الجزء الأول الصفحة (١٥) .
(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، طبع القاهرة الصفحة (٢٨٥) .
(٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء السابع الصفحة (٢٩٥) .

ولا يستبعد أن تكون مدينة واسط قد بنيت على شكل الكوفة لما أسسها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة (٨٣ هـ = ٧٠٣ م) ، وجعلها عاصمة العراق ، ومقر جنده من أهل الشام . وعلى ما يظهر أن هذه الأمصار العراقية الأولى نمت بسرعة مدهشة ، وأن هذا النمو لم يخل من شيء من الفوضى لأنها لم تكن في فاتحة أمرها إلا معسكرات للجند ، ولأنها دفعت بنتيجة تطورها لأن تتحول إلى حواضر وعواصم ، دون أفكار واضحة كل الوضوح ، غير التي شرحناها لقيـادة توسعها ولتوجيه نموها .

وكان على أبي جعفر المنصور أن يفكر عام (١٤٥ هـ = ٧٦٢ م) لما هم ببناء بغداد في كل هذه القضايا . وكان قد دفع عملياً لمواجهتها لما شيد مدينة الهـاشمية بين الكوفة والحيرة ثم تحول عنها [١] . ولا شك أنه كان متمرساً بالقضايا العمرانية والمعمارية ، لذلك فانه بعد أن اختار موقع مدينة بغداد عزم على أن يحل هذه القضايا فقط على المستوى الفني ، وهذا ما دعاه لأن يحضر آلافاً كثيرة من المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين ، والفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين [٢] . وكان بين المهندسين الذين دُعوا للاسهام في مشروع بناء المدينة الجديدة خمسة ، يذكر لنا البلاذري أسماءهم وهم : الحجاج بن يوسف أرطاة ، وعبد الله محرز ، وعمران بن وضاح ، وشهاب بن خاطر ، وبشر بن ميمون [٣] . وقد تداول المنصور معهم في كل أمر من أمور المدينة المقبلة . ووجب عليهم جميعاً أن يحلوا قبل كل شيء قضية الشكل الذي يجدر أن تكون عليه بغداد على ضفة دجلة الغربية حيث تنبسط الأرض ولا تعترضها أية صعوبة طوبوغرافية . وكان أن نصحوا الخليفة أن يتخذ لبغداد المخطط المستدير لأن هـذا المخطط ينسجم مع واقع المدن العراقية العربية الأولى التي جرى الحديث عنها ، ويتفق مع ما يتمثله المنصور في نفسه من صفة عاصمته المقبلة .

---

(١) وهي غير مدينة الهاشمية التي بناها أبو العباس السفاح قرب الأنبار على شاطىء الفرات ، انظر : اليعقوبي ، كتاب البلدان ، الصفحات (١ ـ ٢٢) .

(٢) البغدادي ، تاريخ بغداد ، الجزء الأول ، الصفحة (٦٦) .

(٣) انظر المصادر العربية التي تتحدث عن ذلك في :

K. A. C. Creswell, Early Muslim Architecture, t. II, P. 6.

ويحصي مؤرخو الفن المهتمون بالدراسات الاسلامية في عصرنا ، المدن القديمة التي كانت مدورة قبل تأسيس بغداد ، وقد كان المخطط المستدير معروفاً منذ أقدم الأزمنة التاريخية في رقعة الشرق القديم ، إلا أنه لم يشع شيوع المخطط المستطيل أو المربع المجعولين على شكل رقعة الشطرنج في تأسيس المدن . والظاهر أن أسباباً رمزية وعسكريه دفعت لجعل بعض المدن مدورة فرسم الدائرة يشير بالخط الهيروغليفي المصري القديم الى المدينة ، وكذلك قرص الاله فائستوس عند سكان كريت القدماء ، وتمثل الحياة في التيبت على شكل دولاب ، وعلى ما يبدو كان شكل البيوت الأولى مستديراً ، وقد عثر على مجسم من الطين في حفائر مدينة (ماري) الاكدية الأمورية في سورية ، وهو من الألف الرابع قبل الميلاد ، وشكله مدور . أما الأسباب العسكرية عن أفضلية تدوير المنشآت العسكرية فانها كانت تنص على أن هذه الأشكال المدورة تحذف الزوايا المائتة من الأسوار والأبراج ، وتزيد في مناعتها ، وتعزز تحصينها وتحملها لهجوم العدو ولرشق قذائفه .

ومهما يكن فان مخطط مدينة أوروك السومرية كان مدوراً (١) ، وكذلك كان سور مدينة الكاب المصرية (٢) وقد انتشرت المدن المدورة أو الشبيهة بالمدورة في سورية القديمة أكثر من غيرها من البلاد . وذلك لأن كثيراً من هذه المدن السورية كانت تقام على مرتفعات الهضاب أو في ذرى الجبال ، وتحاط بأسوار بيضوية أو شبيهة بالمستديرة . وقد كانت أسوار المدينة المبنية في (تل دوير) بيضوية وكذلك كانت أسوار مدينة (أريحا) . وكانت أسوار المدينة المشيدة في (تل هوام) مستديرة شأن أسوار المدينة المنشأة في (عين شمس) . وتقع كل هذه المدن في فلسطين ويعود عهد بعضها الى الألف الثالث ، وبعضها إلى الألف الثاني قبل الميلاد (٣) وتتحدث النصوص المصرية القديمة عن مدينة (قادش) في سورية الوسطى فتذكر أنه كان لها سوران متداخلان ومستديران وبينهما خندق مملوء بالماء . ومن هذه المدن أيضاً مدينة كركميش في الشمال التي كانت عاصمة للحثيين منذ عام (٢٠٠٠ ق.م) ، وكانت محاطة بسورين بيضيين متداخلين ، ثم مدينة زنجرلي

(١) انظر : اللوح ١٣

(٢) انظر كتاب : Christian, Altertumskunde, II P. 6.

(٣) انظر المراجع عن هذه المدن في بحثنا : (فن العمارة العسكرية السورية منذ الألف الثاني قبل الميلاد حتى آخر العهد البيزنطي) ، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، العدد الثاني . Pierre Lavedan : Histoire de l'Urbanisme, t. I, Paris 1926

الحثية أيضاً التي بنيت عام (١٣٠٠ ق.م) مستندة على جبل الأمانوس ، وقد كان لها اكروبول في وسطها أحيط بسور بيضي ، وحول هذا السور شيدت منشآتها . وقد ضرب حول هذه المنشآت سوران متداخلان كاملا التدوير [١] .

ونبه العالم الألماني هرزفيلد منذ مدة طويلة إلى أن المعسكرات الآشورية مدورة أيضاً ، وجمع عدداً من صورها منذ عهد سلمنازار الثالث (٨٢٨ — ٨٢٤ ق.م) إلى عهد سناخريب (٧٠٥ — ٦٨١ ق.م)[٢] واحتذى مثله عدد من العلماء منهم (كريزويل) الذي وصف احدى عشرة مدينة مدورة ذكرنا بعضها[٣] وذكر أن منها مدينة (أبرا) الواقعة شرقي نصيبين ، ومدينة (أقباطان) التي بنيت في القرن السابع قبل الميلاد ، والتي تحدث عنها المؤرخ اليوناني هيرودوت ، فذكر أنه كانت لها سبعة أسوار مستديرة ومتداخلة بعضها في بعض ، ويعلو كل منها عن الآخر اعتباراً من السور الخارجي الأول حتى السور المركزي السابع بمقدار ارتفاع شرافاته التي ينتهي بها . وقد لُوّن كل سور بلون خاص ، وفي هذه الألوان الأبيض والأسود والأرجواني ، والأزرق والأحمر والفضي والذهبي .

ومن المدن المدورة المذكورة المدينة اليونانية (مانتينه) التي شيدت في القرن الرابع قبل الميلاد ثم مدينة (المدائن) المشهورة القريبة من موقع بغداد ، ومدينة الحضر البارثية ، ومدينة حران ، ومدينة درب ، ومدينة هرقلة ، ومدينة أصفهان . وكنا ذكرنا أن شكل مدينة الكوفة كان مستديراً ، ويوحي بذلك اسمها . وقد تحدث بذلك البلاذري الذي ذكر أن المواضع المستديرة من الرمل تسمى كوفاني[٤] وياقوت الحموي الذي ذكر أن الكوفة هي الرميلة المستديرة وان الكوفة سميت كذلك لاجتماع الناس بها[٥] .

ويستنتج من كل ذلك ان هذه المدن المدورة نشأت في رقعة الشرق القديم ، وان عددها كان أقل بكثير من عدد المدن المستطيلة أو المربعة المجعولة على شكل رقعة الشطرنج والتي كانت

---

(١) و (٢) Sarre and Herzfeld, Archäelogische, Reise. I, PP. 101 - 3.

(٣) K. A. C. Creswell, Early Muslim Architecture, II, p. 18

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، الصفحة (٢٨٤) .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، الصفحة (٢٩٥) .

توجه أضلاعها الى الجهات الأصلية ، أو من المدن التى لا شكل لها ، والتي لا يمكن حصر عددها في شرقنا العربي . ولا بد من القول إن استدارة الأسوار في المدن المدورة لم تكن تامة قبل بناء بغداد ، وإنه يمكن التأكد من ذلك من الأبحاث الأثرية التي أجريت في عصرنا ، اللهم إلا ما يتعلق بأسوار مدينة زنجرلي الخارجية التي كانت كامله التدوير .

وغير خاف أن انشاء المدينة المدورة معقد كل التعقيد ، وأن رسمها يحتاج الى الفرجار وأن تنفيذها على أرض مستوية أو غير مستوية يتطلب فناً هندسياً متكاملا . وقد توفر هذا الفن الهندسي المتقن لأبي جعفر المنصور لما شيد بغداد . ويذكر الطبري (١) أن المنصور أمر أن يُخط رسمها على الأرض بالرماد ، وطفق يطوف في كل أقسامها المخطوطة ، ثم أمر أن يُجعل على تلك الخطوط حب القطن وأن يُصب عليه النفط ، وراح ينظر إليها والنار تشتعل ، فعرف رسمها ، وفهم أنه تحقق فيها ما يريد وأوعز أن يُحفر أساسها على ذلك الرسم وأن يبدأ بعملها .

وانتهى المنصور من بنائها سنة (١٤٩ هـ = ٧٦٦ م) ، وأكد المؤرخون العرب أنه لا تعرف في جميع أقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها ، لأنها كانت أروع مثل عن المدن المدورة ، ولأن معظم المدن المدورة كانت قد اندثرت في عصر انشاء بغداد . ومما يؤسف انه لم يصل إلى زماننا كذلك شيء عن أقسام مدينة المنصور وعماراتها فقد انهارت صروحها ، وأزالت الكوارث الطبيعية والحروب معالمها ، وطمست خططها . ومن المعلوم انه لم يسلم من بغداد إلا بعض العمارات العباسية التى انشئت في عصر متأخر عن عصر المنصور . ومن اللازم أن نعود إلى ما تركه من أوصافها المؤرخون العرب كالخطيب البغدادي واليعقوبي والطبري وغيرهم لرسم بعض الخطوط العامة عنها . وقد فعل ذلك بذكاء ومهارة العلماء والمؤرخون الأوربيون كلوسترانج وهرزفيلد وكريزويل وغيرهم (٢) . ولا يمكننا في هذه العجالة إلا أن نختار ما يفيد موضوعنا من هذه الدراسات القيمة (٣) .

---

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء التاسع ، الصفحة (٢٤٠) .

(٢) Le Strange (C.), Bagdad during the Abbasid Caliphate, London 1900

اما ما يتعلق بهرزفيلد وكريزويل فقد سبق الاشارة إلى كتابيهما .

(٣) استندنا في سرد الأرقام التالية على كتاب كريزويل واعتمدنا على استنتاجاته .

تبدت بغداد في منتصف القرن الثاني الهجري مدينة ملكية منيعة ذات مظهر عسكري واضح . وكانت تبدأ بالخندق المستدير الذي يحيط بها احاطة السوار بالمعصم ، والذي كان يبلغ عرضه (٤٠ ذراعاً = ٢٠،٢٧ متراً) . ثم يليه رصيف من الآجر ، فالسور الأول الذي علته الشرفات المدورة ، وبلغ ارتفاعه (١٨ ذراعاً = ٩ أمتار) ، ففصيل أول غير مبني بعرض (٧٥ ذراعاً = ٣٨،٧٥ متراً) ، فالسور الثاني الذي ارتفع (٦٠ ذراعاً = ٣٤،١٤ متراً) . وكان يوجد في كل قسم من أقسام هذا السور ثمانية وعشرون برجاً ، ماعدا القسم الجنوبي الغربي منه حيث شيدت فيه تسعة وعشرون برجاً . ويلي هذا السور فصيل ثان عرضه (٢٥ ذراعاً = ١٢،٩٥ متراً) ثم منطقة سكنية بعرض (٥٣٨ ذراعاً = ٢٧٨،٦٨ متراً) قسمت أراضيها وأقطعت هذه الأراضي إلى قواد الخليفة وكبار رجال دولته ومواليه ، ونظمت على أشكال الأحياء ، وخصص كل حي بفئة من سكان بغداد العرب والخراسانيين والخوارزميين . وكان لكل حي منها باب يغلق ليلا ، وكانت طرقات هذه الأحياء تبدأ من الفصيل الثاني ، وأكبر الظن أنها كانت على أشكال أنصاف دائرة ، ولا يستبعد أن تكون قد جعلت متقاطعة مع شوارع موازية للفصيلين الثاني والثالث بزوايا قائمة أو شبه قائمة . وقد جعل المنصور فيما بعد عرض كل طريق أربعين ذراعاً ، وأمر بهدم ماشخص من الدور عن ذلك المقدار .

ثم يأتي بعد منطقة السكن فصيل ثالث يحوي فراغاً خصص لمنشآت جهاز الحكم المركزي وكان يوجد فيه المسجد الجامع وقصر المنصور المسمى (باب الذهب) . وكانت تعلو ايوان هذا القصر القبة الخضراء التي تذهب في السماء (٨٠ ذراعاً – ٤١،٤٢ متراً) . وكذلك كان في الفراغ الذي أشرنا إليه بيت المال وخزانة السلاح ، وبيوت للمهدي وبقية أولاد المنصور ، وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند .

وقد قسمت مدينة المنصور لتأمين مواصلاتها في داخلها وخارجها ، وتسهيل هذه المواصلات إلى أربعة أقسام متساوية ، وجعل لكل قسم باب . وهـذه الأبواب هي باب خراسان في الشمال الشرقي ، وباب البصرة في الجنوب الغربي ، وباب الشام في الشمال الغربي وباب الكوفة في الجنوب . وهكذا كان يتحتم على من كان يقصد الجامع الكبير أو قصر المنصور ، أن يجتاز

الخندق ثم بابين في السور الخارجي بينهما دهليز أزج معقود بالآجر والجص ، طوله (٣٠ ذراعاً = ١٥,٥٤ متراً) ، وعرضه (٢٠ ذراعاً = ١٠,٥٦ أمتار) . ثم يقطع رحبة ، طولها (٦٠ ذراعاً = ٣١,٠٨ مترا) ، وعرضها (٤٠ ذراعاً = ٢٠,٧٢ مترا) ، ويفصلها جداران من اليمين واليسار عن طرفي الفصيل الأول . ثم ينفذ من بابين آخرين في السور الثاني الكبير بينهما دهليز معقود بالآجر والجص ، طوله (٢٠ ذراعاً = ١٠,٥٦ م) وعرضه (١٢ ذراعاً = ٦ م) . ويبلغ رحبة ثانية مربعة تتصل بجزئي الفصيل الثاني ، ضلعها (٢٠ ذراعاً ١٠,٥٦ م) ثم يدخل إلى شارع على جنبه الطاقات وهي الأروقة التي يبلغ عددها ثلاثاً وخمسين طاقة ، وعرضها خمسة وعشرين ذراعاً ، وطولها عرض المنطقة السكنية . ووراء هذه الطاقات كانت تقوم قاعات مستطيلة واسعة .

وهي تتصل برحبة ثالثة كالرحبة الثانية تماماً ، يتصل المرء منها بالفصيل الثالث .

وتنتهي بالطاقات الصغرى عند مدخل السور .

ولم يعرف في تاريخ العمران العالمي تنظيم هندسي دقيق مثل هذا التنظيم الذي احتاج إلى خبرات فنية عميقة وجهود كبرى قصرت عنها على وجه التأكيد الخبرات والجهود التي تهيأ بذلها لأي ملك من ملوك العالم الذين أتوا قبل المنصور . لقد كانت السنوات (١٤٥ — ١٤٩ هـ) التي انقضت في تشييد بغداد حافلة بالتجارب العمرانية والمعمارية ، توفرت خلالها للخليفة ولمهندسيه أفكار عملية واسعة في التنظيم العمراني . وقد أدرك أن المدينة الجديدة لابد من أن تتوسع إذا أريد أن يتوفر للدولة العربية جميع مايلزم لادارتها ولحاجات سكانها ، وأن عليه أن يؤمن تنظيم بغداد الاجتماعي وأن يوجه توسعها . ومما لاريب فيه أنه لم يكن بالإمكان حصر كل منشآت العاصمة داخل أسوارها .

وتجلى بوضوح أنه لامحيد لها عن الامتداد إلى أرباضها ، وعن تنظيم كل ربض منها وربطه بالنواة المركزية ، كما كان لامناص من بلوغ ضفة دجلة الشرقية والامتداد عليها . ان بغداد مدينة نهرية ومن الضروري أن تعتمد على هذا النهر العظيم في تأمين اتصالها بعوالم الخليج الفارسي ، والشرق الأقصى ، وافريقيا .

ومن غير الطبيعي ألا ترتكز على الضفتين معاً وألا تتابع في هذا المجال الموسع أعمال تنظيم الفراغ وتهيئة جميع مايلزم من اطارات مادية لائقة بالمدنية العربية التي بدأت تعيش عصرها الذهبي .

وأنا أشك كما شك غيري في القصة التي أوردها الخطيب البغدادي عن البطريق الرومي الذي بعد أن زار بغداد على رأس وفد أرسله (بازلوس القسطنطينية) ذكر للمنصور ثلاثة عيوب في مدينته وهي : قلة المياه ، وفقدان الخضرة ، واندساس الأسواق فيها ، مما يستدعي وفود الغرباء عليها وتهديدهم لأمنها (١) ويقوم شكّي على أن تلافي العيوب المذكورة كما حدث تماماً عن طريق مد الأنهار وأقنية الماء في كل أرجاء المدينة ، وإدخال الحدائق الى قصورها وبيوتها واحاطتها بالبساتين ، وتخصيص الأسواق بمنطقة معينة من المدينة خارج السور ، وفر للشرق العربي في العصر الوسيط المدينة المثلية التي كان بحاجة اليها . كما ان تحقيق الاصلاحات المذكورة ألّف الخصائص الأساسية لفن العمران عند العرب التى تميز بها عن غيره من الفنون العمرانية الأخرى . ولم يكن لفن العمران البيزنطي مثل هذه الخصائص ، ولم تشتهر القسطنطينية أو سالونيك أو غيرهما من المدن البيزنطية قبل تأسيس بغداد كما اشتهرت به المدن العربية . وعلى الرغم من اعتقادي أن فن العمران العربي مدين ببعض الشيء لفن العمران البيزنطي ، إلا ان الفن الأول حلق في المضمارين العملي والجمالي اللذين شرحناهما بأجنحته الخاصة ، وكانت مكتسباته فيهما نتيجة لتجارب خاصة محلية وجب أن تلي المبتكرات العمرانية الكبرى التي حققها المنصور والتي جرى الحديث عنها .

وفي الواقع وُضع تلافي العيوب المشار اليها أمام المنصور وخلفائه كمنهاج عمراني يتوجب تحقيقه لتحسين بغداد وتجميلها . وقد تحقق هذا المنهاج في بغداد وعنها أخذته المدن العربية التي بنيت بعدها . وأظن أن السبب الذي حـدا بالمنصور الى اخراج الأسواق وأصحاب الصناعات من طاقات مداخل المدينة بعد عدة سنوات من بنائها ، كان ضيق الإطار المذكور عن استيعاب كل حاجات حياة بغداد الاقتصادية . وكان عدد طاقات كل باب ثلاثاً وخمسين طاقة . ولا ريب أن مائتي واثنتي عشرة طاقة لا يمكن أن تكفي تلك العاصمة التي جعلت تجذب الناس اليها من كل أقاليم الدولة العربية ، حتى أصبحت أكبر مركز للبضائع في الشرق ، وقد زاد عدد سكانها حتى أربوا بعد زمن غير طويل على مليون نسمة .

---

(١) وقد أجاب المنصور البطريق الروماني قائلاً : « أما قولك في الماء فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا وأما العيب الثاني ، فاننا لم نخلق للهو واللعب ، وأما قولك في سري فمالي سر دون رعيتي » . الخطيب البغدادي المصدر المذكور سابقاً ، الصحيفة (٧٨) وما بعدها .

لهذا فإن المنصور نقل أسواق بغداد خارج اسوارها لجعلها في إطار أوسع . وأمر ببنائها على نفقته في منطقة الكرخ وقد دعا كما يقول الخطيب البغدادي « بثوب واسع فحد فيه الأسواق ورتب كل صنف منها في موضعه [١] » . وأوعز بجعل سوق القصابين في آخر الأسواق ، لأن هؤلاء الناس في أيديهم الحديد القاطع . وهكذا تم العمل المذكور حسب أفكار الخليفة ونظرياته متابعاً به خطة (زوننغ Zoning) هو مبتكرها في تقسيم رقعة المدينة الى مناطق ، وتخصيص منطقة منها بالتجارة والصناعة ، وعزل الصناعات الخطرة عن غيرها . وقد اتسعت المنطقة التجارية الصناعية غربي المدينة المدورة وجنوبها ، بعد أن نظمها المنصور وبنى لأهلها مسجداً ، وأقام عليهم من يهتم بأمرهم وخصص له قصراً في جانب المسجد .

وأكملت خطة المنصور في جمع أصحاب المهن في قطاع خاص من المدينة بخطته الاجتماعية في تخصيص قواده وكبار رجال دولته ومواليه وغيرهم بأحياء تقسم بينهم بحسب منشئهم العرقي كعرب وخراسانيين وخوارزميين ، وتخصيص كل فئة منهم بحي أو عدة أحياء . وذلك حتى تصرف كل فئات هؤلاء السكان في بغداد حياتها داخل اطارات عرقية أو مهنية وتتجاور وتتعايش سلمياً بين بعضها بعضا .

أما عن عيب بغداد الثاني وهو قلة مياهها ، فإنه كان يوجد في موقع المدينة بعض الأنهار والأقنية التي شقت في العصر الساساني [٢] . ولا بد أن الأمر احتاج في زمن المنصور الى اعادة توزيع هذه الشبكة المائية وتوسيعها وجعلها تسد حاجات المدينة المدورة وأرباضها . لهذا فإن المنصور « مد قناة من نهر دُجيل الآخذ من دجلة ، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرهما الى مدينته في عقود » [٣] . وقد تكامل هذا العمل فيما بعد ، وعمت الأنهار والأقنية أرض بغداد ، وكان أشهرها نهر عيسى ، الذي يأخذ منه نهر الصراة ، وتتفرع من هذا أنهار عديدة منها خندق طاهر الذي يدور حول بغداد . ومن نهر كرخايا الذي تقدم ذكره تتفرع أنهار رزين والبزازين والدجاج وقطيعة الكلاب والقلائين ، وطابق . ومن هذه الأنهار والأقنية أيضاً

---

(١) الخطيب البغدادي ، الصفحة (٨٠) .

(٢) وبشير إلى ذلك الحديث الشريف « تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطر بل والصراط ويجبى اليها خراج أهل الدنيا وجبابرتها ... » الخطيب البغدادي الصفحة (٢٨) .

(٣) الخطيب البغدادي ، الصفحات (٧٨) و (٧٩) و (١١١) .

نهر موسى ونهر المعلى ونهر المهدي ونهر الفضل ، وأنهار الحربية التي كانت أوائلها مكشوفة ثم تجري في قنوات تحت الأرض[١] . وكانت كل قناة تجتاز الأرباض وتنفذ الى المدينة ، وتساير الشوارع والدروب والأحياء ، وتتخرق بين المحال والبيوت ، وتجري صيفاً وشتاء ولا ينقطع ماؤها ، وتمتد فوقها القناطر التي تسمى بأسماء الأحياء التي تجتازها .

ونتج عن انشاء الشبكة المائية المذكورة توفر امكانيات كبيرة لامتداد المدينة خارج أسوارها ولتوسع أرباضها . وقد انتشرت منشآتها مباشرة في عهد المهدي بن المنصور على رقعة من الأرض تبلغ طولا وعرضاً بين (٧ — ٨ كيلو مترات) . وكان المنصور هو الذي بدأ حركة التوسع هذه ، إذ أنه شيد على شاطيء دجلة في موضع دير قديم قصراً أسماه (الخلد) ، ثم أمر أن يشيد لابنه المهدي على الضفة الشرقية من دجلة عدة مبان بينها قصر الرصافة . وقد أقطع قواده ورجال دولته الأراضي الواسعة على الضفتين الغربية والشرقية ، فقاموا يحتذون مثل الخليفة ، ويبنون القصور التي تجتمع فيها وحولها ، بيوت أنصارهم . وأخذت هذه القصور تقترب تدريجياً من بعضها ، ونشأت أحياء حولها كانت أشبه بالحجيرات التي يتألف منها جسم المدينة ، وأشهر هذه القصور قصر أسرة البرامكة الذي تحول فيما بعد إلى ماسمي بـ (دار الخلافة) ومنها أيضاً القصور التي بناها الخلفاء بعد عودتهم من سامراء (قصر التاج ، وقصر الجوسق وقصر الفردوس وغيرها . . .) .

ونتج أيضاً من جراء نفوذ الأنهار والأقنية إلى كل مكان في بغداد أن الخضرة التي تمناها البطريق الرومي انتشرت في كل مكان وأحدثت البساتين والرياض والحدائق . وقد افتن البغداديون في اختيار مواقع حدائقهم ، بحيث أنها كانت تشرف على مشاهد ومناظر طبيعية جميلة ، وانصرفوا إلى زراعتها بشغف زائد بسائر أنواع الغروس والأشجار وإلى رفع مياه الأنهر اليها بواسطة الدواليب . حتى نشأ فن عباسي في تنظيم الحدائق استفاد من كل الفنون التي سبقته[٢] وأربى عليها بأن جعل الرياض تتجمل بكل مبتكرات الصناعات ، وتصبح مكان

---

(١) انظر : A. A. Duri, Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle Edition, « Baghdad » T.I

(٢) اليعقوبي ، البلدان ، الصفحة ٢٦٤ . أنظر بحثنا عن فن الحدائق عند العرب في المجلد العاشر من مجلة الحوليات الأثرية .

راحة وأنس ولذة لأناس صقلتهم الحضارة فغدت أذواقهم صعبة لاتستسيغ الا الكمال والترف في كل شيء .

ومن ذلك تزيين الأشجار وتلبيسها بالمعادن الثمينة وزخرفة أقسام الحديقة ونشر الصور والتماثيل في أرجائها . وتكفينا فقرات من وصف حديقة قصر المقتدر بالله (الجوسق المحدث) لتقرب من خيالنا صورة الحديقة البغدادية العباسية . وقد كان هذا القصر في الضفة الشرقية أحد ثلاثة وعشرين قصراً يقطنها الخليفة . ويتصل بحديقة تحوي ميادين متعددة غرست باربعمائة نخلة لبست بأجمعها ساجاً منقوشاً ومحلقاً بالنحاس المذهب . ويجري في هذه الميادين نهر رصاصي قلعي يمر على بركة مستطيلة طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً ، وإلى جانب هذه الحديقة تقوم دار الشجرة التي تحوي بمنتصفها بركة مدورة في وسطها شجرة قضبانها من ذهب وفضة ، وعليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة التي تصفر وتهدل . وعلى يمين البركة ويسارها تماثيل ثلاثين فارساً في أيديهم مطارد على رماح [١] .

ونشأت حدائق الحيوانات وجمعت فيها أصناف الوحوش ، وكان في قصر الخليفة المقتدر حير للوحش [٢] ، وكانت الحيوانات التي جمعت فيه تقترب من الناس الذين يأتون للتفرج عليها ، وتتشممهم وتأكل من أيديهم [٣] . ومما يستحسن ذكره أن المقتدر لما استقبل سفارة بيزنطية

---

(١) الخطيب البغدادي ، المصدر المذكور ، الصفحة (١٠٣) .

(٢) لقد كان في قصر الخليفة هذا دار الخيل المعدة لاستقبال السفارات الأجنبية ويظن أن فكرتها مأخوذة من دار الخيل التي كانت مقابل قصر الخضراء في دمشق خلال العهد الأموي ، ودار الفيل وغيرهما . وقد أضاف الخليفة المطيع إلى هذه المنشآت دار الطواويس ودار المثمنة ، ودار المربعة ، وأنشأ الخليفة الطائع باب الخاصة ، وأصلح الخليفة المستظهر دارالريحانيين(منظره الرياحين) الخ ... انظر الصفحات (٥٥ ـ ٦٠) من كتاب جورج سالمون ، المدخل الطوبوغرافي لتاريخ بغداد باللغة الافرنسية المتقدم الذكر .

(٣) الخطيب البغدادي ، المصدر المذكور الصفحة (١٠٢) .

أرسلت لزيارة بغداد ، نظم على شرفها استعراضاً مشى فيه مائة سبع وأربعة أفيال و ١٦٠ ألف جندي من المشاة والفرسان الخ .. [١] .

وأخيراً لابد من القول إن العمارة العربية خرجت متجددة من التجربة الكبرى التي قام بها المنصور في بغداد . ونتج عن عمله هذا الذي لم يكن له مثيل في التاريخ أن أوجدت جميع نماذج المباني التي تحتاج لها إلى مدة طويلة حياة العرب ، والتي تنسجم مع اقليم بلادهم في عالمهم الفسيح . ولم يعد يفوت المهندس العربي بعد تشييد بغداد أي سر من أسرار البنـاء بالطوب وبالآجر ، وأصبح ميسوراً عليه استخدام كل امكانيات هاتين المادتين في العمارة الدينية ، وفي العمارة المدنية وفي العمارة العسكرية . وقد حققت كل هذه العمارات في بغداد ذلك العصر أكبر توسع أفقي يمكن أن تناله في عشرات الالوف من المباني التي تزيد أطوال بعضها على (٢٠٠ متر) ، كما حققت أكبر توسع شاقولي في ارتفاع بعض هذه المباني التي زادت على (٤٠ متراً) [٢] .

وسارت عمارة بغداد بعلم رفع القباب على الرقبات المثمنة شوطاً بعيداً ، وجعلت ارتـكاز هذه القباب فوق الخراطيم . وقد حقق ذلك نفس النتائج التي توصلت اليه القبـاب البيزنطية من ارتكازها على القلائد المدلاة . وابتكرت كل أنواع العقود والأقواس نصف المدورة والبيضية والمجزوءة ، والمنفوخة ، والمفصصة ، وجعلتها على الدعائم والمساند ، وعممت استخـدام الأواوين والدهاليز والسراديب والأبواب المزورة ، والقاعات الكبرى ، والباحات الفسيحة والطاقات والأروقة ، واتخذت على الجدران التزيينات الجصية والمرمرية واللازوردية والذهبية والفضية والبرونزية والخشبية [٣] .

* * *

(١) انظر وصفاً لاحدى حدائق الحيوانات في سامرا كانت تحوي الوحوش من الظباء والحمير الوحش والأيايل والأرانب والنعام ، في اليعقوبي المصدر المذكور سابقاً . الصفحة (٢٩) .

(٢) انظر البحث القيم الذي كتبه الأستاذ بشير يوسف فرنسيس ، المظاهر الفنية في عواصم العراق الإسلامية القديمة على ضوء الاستكشافات الحديثة ، مجلة سومر ، الجزء الأول ، المجـلد الرابع ، الصفحات (١٠٣ ـ ١١٢) .

(٣) أنظر فصل العمارة العباسية في : G. Marçais, l'Art de l'Islam, Paris, pp. 33 — 60.

وهكذا تألف في بغداد مفهوم المدينة العربية العملية التي جملها الفن العمراني والمعماري أجمل تجميل . وكان من الطبيعي أن يفرض هذا المفهوم كمثل يحتذي أمام كل المدن العربية التي نشأت بعد بغداد ، أو التي احتاجت إلى أعمال عمرانية تجديدية . كما كان من الطبيعي ألا تتوفر لهذه المدن كل الامكانيات التي تهيأت لبغداد ، وأن تأخذ فقط من المبتكرات البغدادية ما تسمح لها امكانياتها بأخذه . ومهما يكن فان التجارب التي توافرت للفن العربي العمراني والمعماري عقب تشييد مدينة المنصور ، انتشرت في كل مكان واستفاد منها العالم العربي والعالم الغربي على السواء .

وتجلى تأثير بغداد خاصة في المدينة التي بناها المنصور سنة (١٥٥ هـ = ٧٧٢ م) وأطلق عليها اسم (الرافقة) إلى جانب مدينة الرقة القديمة ، وأقام فيها حامية من جنده للدفاع عن بلاد الشام ضد الجيوش البيزنطية . وقد ذكر أن المنصور استقدم العمال لبنائها من العراق (١) ويقول الطبري إنها بنيت على نموذج بغداد ، وأنه كان لها مثل أبوابها وفصيلها ورحباتها (٢) . لهذا فانه لايستغرب أن كانت هذه المدينة قد أتت نسخة مصغرة عن مدينة بغداد . وما تزال أسوارها قائمة في زماننا على الرغم مما طرأ عليها من تهدم وانهيار . وتعطينا استدارتها غير التامة ، إذ أن طرفها الجنوبي مستقيم ، وعلى الرغم من شكل نعل الحصان الذي اتخذته ، فكرة عما كانت عليه المدينة المدورة في زمن المنصور . وهي مبنية من اللبن شأن أسوار بغداد ، ولها خندق وسوران خارجيان بينهما فصيل عرضه (٨٠ ر ٢٠ متراً) ، ولا يدري ، إذا كان للسور الخارجي شرفات مدورة . ويظن أن هذا السور كان يرتفع (١٠ أمتار) ، وكانت له أربعة أبواب أيضا وهي : الباب الشرقي ويسير منه طريق إلى بغداد ، والباب الجنوبي الغربي ويتجه منه الطريق السائر الى مدينة مسكنه ، والباب الجنوبي ، وهو المطل على نهر الفرات والباب الشمالي وكان يبدأ منه الطريق المتجه إلى حران . وقد بقي باب بغداد في السور الخارجي وهو مثل جميل عن العمارة العباسية من الآجر ، وفي فتحته اليمنى قوس مجزوء رائع ، وكان يوجد وراءه برج مستدير يبرز من بناء السور الداخلي . وما تزال ترى بقايا عدد من الأبراج المستديرة الموزعة بالتتابع على طول السور المذكور ، على أساس قيام برج في كل (٣٥ متراً) .

---

(١) انظر كرزويل ، المصدر المذكور سابقاً ، الصفحة (٣٩) .

(٢) انظر: K. A. C. Fortification in Islam before A. D. 1250, from the Proceedings of the British Academy Vol, XXXVIII, P. 108.

ومما يؤسف أن البيوت الحديثة اجتاحت الفراغ المحصور ضمن السور الداخلي ، بحيث يصعب الآن التأكد فيما إذا كان قدوزع هذا الفراغ قديماً بين منطقة للسكن يتقدمها فصيل ثان وبين سور ثالث يظن أنه كان يحيط بالقصر والجامع اللذين بناهما المنصور في وسط المدينة . ومهما يكن فان ما تبقى من الجامع المذكور يدل على أنه كان مستطيلاً بطول (١٠ و ١٠٨ متراً) وعرض (٩٠ و ٩٢ متراً) وأنه جدد عام (٥٦١ هـ = ١١٦٥ م) في زمن نور الدين زنكي .

امتدت الرقة خارج سورها إلى الشمال في زمن الخلفاء الذين أتوا بعد المنصور ، ونشأت في تلك المنطقة التي يزيد طولها وعرضها على خمسة كيلو مترات مجموعة من القصور والمباني الأخرى، التي تخربت وزالت من الوجود . وقد كشفت تخطيطاتها الصور الجوية التي أخذت عنها . وقامت المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية بالتنقيب فيها بعد سنة (١٩٥٠) . وتعد هذه المنطقة أعظم منطقة للآثار العباسية في الشرق بعد سامراء . وتمكنا حتى الآن من اظهار أربعة قصور أحدها للمعتصم حيث وجد اسمه مكتوباً على أحد الجدران ، وقد انتظمت ثلاثة قصور منها على ضفة قناة كانت تأخذ ماءها من نهر بليخ رافد الفرات . ولا ريب أن هذه القصور التي يزيد طول بعضها على ١٦٠ م وعرضها على (١٢٠ متراً) تشبه قصور بغداد وسامراء ، وتمثل جهود الخلفاء العباسيين في تنظيم أراضي الرقة وفقاً للأسس والمبادىء العمرانية التي اتخذت في بغداد [١] .

ومن المدن العربية التي انبثقت مباشرة من مفاهيم بغداد العمرانية والمعمارية مدينة (سر من رأى) أو سامراء التي أسسها المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين سنة (٢٢١ هـ = ٨٣٦ م)

---

(١) للاطلاع على مجمل الأعمال الأثرية التي جرت في مدينة الرقة ، يرجع الى التقارير التي نشرت عنها في أعداد مجلة الحوليات الأثرية السورية الآتية :

S. Abdul Hak, Chronique des Fouilles en Syrie, les Fouilles de la Direction Générale des Antiquités à Rakka, T. I. No. I. pp. III — 121

Nassib Saliby, Rapport préliminaire sur la 2 ème campagne de fouilles à Raqqa, T. IV/V , pp.205-212. Deuxième Exposition des découvertes archéologiques 1954 — 1955

وجعلها عاصمته بدلاً عن بغداد . وقد عاش فيها كما هو معلوم ثمانية خلفاء إلى أن أتى الخليفة المعتمد فأعاد العاصمة إلى بغداد . ولولا حادثة انتقال العاصمة من بغداد لكانت سامراء حياً أو جملة أحياء من مدينة المنصور ، على الرغم من اتساعها وامتدادها على ضفة دجلة خمسة وثلاثين كيلو متراً .

ومع ذلك يظهر أن مبدأ المدينة المبسوطة تغلب لدى بناء سامراء على مبدأ المدينه المدورة المحصورة ضمن الأسوار . وخطى العمران العربي العباسي خطوة جديدة محققاً نموذجاً ثانياً من المدينة الملكية للدولة العربية . وقد احتذى خلفـاء سامراء فيها نفس الأساليب والخطط العمرانية والمعمارية التي اتخذها أسلافهم فخصصوا الأسواق وجروا المياه إلى كل مكان وأنشأوا الرياض [١] وقام كل منهم يبني لنفسه قصراً وقصوراً وكانت هـذه القصور بابعادها الكبيرة والأنهار والأقنية التي تجري فيها والحدائق التي تلحق بها والأسواق والبيوت التي تتألف حولها أشبه بمدينة قائمة بنفسها . وقد انصرفوا إلى ذلك بحماس واندفاع شديدين حتى أن المتوكل لما انتهى من تشييد مدينته الجعفرية سنة (٢٤٧ هـ) تكامل له السرور وقال : « الآن علمت أني ملك اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها »[١] .

وما بقي من آثار قصر الجوسق الخاقاني الذي شيده المعتصم على الضفة اليسرى من دجلة ، والذي سمي ايوانه المثلث (بمدائن العرب) ، وقصر بلكوار الذي بناه المتوكل ، وقصر العاشق الذي بناه المعتمد على ضفة دجلة اليمنى ، والمسجد الجامع ، وجامع أبي دلف وعدد لا يحصى من البيوت الخاصة ، يبين لنا بفضل ما بدأته بعثة سارة وهريزفيلد الألمانية وما تابعته بنشاط وجد المديرية العامة للآثار العراقية مدى الشوط الذي بلغه فن بغـداد العمراني والمعماري وهو في

نسيب صلبي ، حفريات الرقة ـ تقرير أولي عن الموسم الثاني ـ خريف ١٩٥٢ الصفحات ٦٧ الى ٧٦ الجزء الرابع .

نسيب صليبي ، حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث خريف ١٩٥٣ ، الجزء السادس الصفحات ٢٥ الى ٣٩ .

أبو الفرج العش ، الرقة من خلال التاريخ وكتب الرحالة الجزء السابع الصفحات ٥٣ ـ ٧٢ .

(١) انظر في الصفحات ٤٦ ـ ٥٠ من تاريخ اليعقوبي

المهجر ، قبل أن يعود ثانية الى المهد الذي نشأ فيه لمعاودة الانشاء والإشعـاع بأنواره على العالمين العربي والغربي .

ويصعب حصر ماوزعته بغداد من دروس في العمران والعمارة هنا وهناك . ان كثيراً من المدن العربية القديمة والمدن العربية الجديدة التي نشأت في افريقية والاندلس اتخذت الأصول العمرانية التي وضعها خلفاء بغداد ، وتزينت بعمارات تمثلت فيها المبتكرات الفنية التي توصلت اليها مدرسة بغداد . وبامكان الباحث أن يعاين بسهولة طابع بغداد المعماري في كل المباني العظيمة التي رفع صروحها العرب والمسلمون في بغـداد والشام ومصر وافريقية والأندلس وايران التي بقيت قائمة في عصرنا كقصرا خيضير والمسجد الأقصى ، وصهريج الرملة ، وجامع ابن طولون وجسر طليطلة واسوارها ، وجامع قرطبة ، وقلعة مريده ، وأسوار سوزا ، والجامع الكبير في اصفهان ، وغيرها مما يضيق شرحه في هـذا المقام . وكذلك كان الشأن فيما يتعلق بالعمران ، واني لمكتف بذكر تأثير بغداد العمراني على تطور ثلاث مدن هامة في الشام وهي دمشق وحلب والقدس . ولا يخفى أن سور دمشق قد هدم بعد انتهاء عهد الأمويين فيها ، وكان شكله مستطيلاً في العهد البيزنطي والأموي (١) . ولما أريد تشييده مجدداً في القرن العاشر لم يعد على التخطيط الذي كان له قديماً وانما جعل تقريباً على شكل بيضي يعتمد على خمسة أبواب من السور القديم . وأظن أن ذلك كان احتذاء لشكل سور بغداد ولشيوع أشكال هذا السور ونشوء الاعتقـاد أن القيمة العسكرية للسور المستدير تفضل القيمة العسكرية للسور المستطيل أو المربع .

وساد دمشق في عهد الفاطميين نظام الأحياء ونشأت فيها الحارات ، وخصص كل منهـا بطائفة وجعل لهـا أبواب تغلق ليلاً ، وقسمت الأسواق بين المهن ، وامتد العمران خارج المدينة ، ونظمت الأرباض منذ زمن نور الدين ، وجعل لكل منها مسجد وحمام وعـدد من

---

(١) انظر : Sauvaget : Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, Revue des Etudes Islamiques, Année 1934, pp. 425 - 480.

الدكاكين ، وظهرت تأثيرات بغداد المعمارية في كل هذه المباني كاتباع نظـام التعامد وجعل القباب عليها ، وتزيين أبوابها بالمقرنصات وطلي جدرانها بالزخارف الجصية .

وكان الأمر كذلك في حلب منذ زمن الحمدانيين ، فقد انشأ سيف الدولة قصره في وادي نهر قويق بعيـداً عن سور حلب بنحو كيلو مترين ، وكان هذا القصر الذي بلغ محيطه (٧٠٠٠ ذراع) والذى هدمه البيزنطيون سنة (٩٦٠ م) نسخة عن قصور الخلفاء في بغداد[١] . ونشأت أيضاً في حلب الأسواق على شاكلة أسواق بغداد ، وانتظمت الحارات التي زودت كل منها بباب يغلق ليلاً ، ورمم السور الذي تصدع من هجوم البيزنطيين في السنة التي ذكرناها وجعل في غربه محدباً ، ويحتذى في تخطيطه تخطيط خندق الروم الذي كان أمامـه . ونظمت الأرباض كما نظمت أرباض دمشق .

وأخيراً فإن تطور مدينة القدس في العهد العباسي كان يشبه ما ذكرنا ، ويظن أنه كان لها سور مستدير . وكان الغربيون ينظرون إليها نظراً مثلياً ، وقد نقل الحجاج منهم صورتها الى بلادهم ، وكانت هذه الصورة تتألف من دائرة تامة مقسمة الى أربعة أقسام متساوية ، تشقهـا أربعة طرق متعامدة على بعضها . وقد أثرت الصورة المذكورة على مخططات عدد من المدن الأوربية المستديرة التي نشأت قبل القرن الثالث عشر الميلادي[٢] .

وفي الواقع لم يكن تأثير عمران بغداد وعمارتها على العالم الغربي أقل من تأثيرهما على العالم العربي وقد ظهر هذا التأثير خاصة في بيزنطة . إذ أن بغداد والقسطنطينية ، إلى التقائهما في مئات المعارك التي خاضتاها بعضهما ضد بعض ، كانتا تتنافسان سلميا[٣] في ميادين العلم والثقافة

---

(١) Sauvaget, Alep, Paris 1941, p. 101 .

(٢) لافدان ، المصدر المذكور سابقاً الصفحة (٢٧٢) .

(٣) ستيف رانسمان ، بغداد والقسطنطينية ، مجلة سومر ، المجلد الثانى عشر ١٩٥٦ ، الصحيفة ١٠١ وما بعدها .

وتتطلع كل منهما إلى مايمكنها أخذه من تراث الأخرى . وإذا كان العباسيون تلقوا عن البيزنطيين كتبهم العلمية والفلسفية وترجموها إلى اللغة العربيه ، فان البيزنطيين تعلموا من العباسيين ماساعدهم على تجميل مدنهم ، وانشاء عمارات قصورهم . وقد بهرت أباطرتهم مبتكرات بغداد وسامراء العمرانية والمعمارية فكانوا يرسلون سفراءهم إلى بلاط الخلفاء ، للاطلاع على نماذج قصور هؤلاء ولطلب تصاميمهـا وتفاصيلها . ولا يخفى أن الامبراطور تيوفيل الذي هزمه المعتصم هزيمة نكراء في عمورية ، أرسل في فاتحة حكمه سفيره يوحنا النحوي وهو من أكبر علماء عصره في سفارة إلى بغداد ، ولما عاد يوحنا إلى القسطنطينية روى لسيده كثيراً من الأمور التي شاهدها في بغداد وزين له محاكاة قصورها . وعمل تيوفل بنصيحته[١] وشيد عمارة (التريكونك Triconique) على شاكلة القصور البغدادية ، ونثر أقسامها بين الأزهار والظلال ، وأحاطها بالحدائق . واستخدم أحد المخططات التي أحضرها معه يوحنا النحوي ، في بناء قصره المسمى الـ (برياس Bryas) ، وقد عرف عنه ذلك وشاع[٢] .

ولم يبق هذا التأثير محصوراً في قصور الأباطرة . وانتقلت عدواه إلى مدينة القسطنطينية التي جعلت هي الأخرى تتخذ مبادىء العمران والعمارة البغداديين وتترك مبادىء العمران والعمارة اليونانيين الرومانيين . وقد نشرت في أرجائهـا الأقنية المائية التي أنبتت الخضرة في كل مكان ، واحتذيت مبادىء تخصيص الأسواق بأرباب المهن ، ونظمت رقعتهـا على ضفتي البوسفور ووزعت بين الأسواق والأحياء ، وجعل أهل كل صناعة في سوق لايشاركهم به سواهم وعمل لكل حي باب يغلق ليلا ، وفرق السكان الغرباء عن المدينة على هذه الأحياء ، فكان

---

(١) انظر : Charles Diehl et Georges Marçais, le Monde Oriental de 395 à 1081, paris 1936, pp. 332 - 333.

(٢) ويظن ان ذلك هو الذي دعى الخطيب البغدادي لكي يقول في تاريخه ، الجزء الأول ، الصفحة (٩٤) : « ان بغداد صورت لملك الروم أرضها وأسواقها وشوارعها وقصورها وأنهارها ... فكان إذا شرب دعا بالصور ، فيشرب على مثال شارع سويقة نصر بن مالك ، ويقول لم أرَ صورة شيء من الأبنية أحسن منه » .

في المدينة أسواق خاصة بالجنويين والبنادقة وأهل رومية وأهل فرانسا . وقد تحدث ابن بطوطة في رحلته عن كل ذلك بالتفصيل (١) .

وحذت حذو القسطنطينية مدينة سالونيك ثانية المدن البيزنطية التي اتخذت أيضاً نظام الحدائق التي أحاطت كنائسها ، وأصول الأقنية التي سدت حاجة السكان من المياه ، وتدفقت في حماماتها كما كان الأمر في حمامات بغـداد وسامراء ، وكذلك اتخذت عادات تخصيص الأسواق والأحياء .

وأخيراً فإن مدينة البندقية التي ورثت مدينة القسطنطينية ومدت تأثيرها في اوربا ، اكتسبت هي الأخرى انظمة الأروقة والساحات والأقنية التي ما تزال قائمة فيها إلى يومنا هذا دليلاً واضحاً على تأثير الشرق العربي في الغرب (٢) .

الدكتور سليم عادل عبد الحق

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، الجزء الأول ، الصفحة ٢٢٦ .

(٢) لافدان ، المصدر المذكور سابقاً ، الصفحة (٢٧٣) .